تقرير

خليل حرب
khalilharb66@gmail.com

عالم يتغيّر بين أميركا وإيران: حرب معركتها في هدنتها

مهما كان شكل نهايات الصراع الأميركي - الاسرائيلي مع إيران، فان النتائج والتداعيات ستظل تتفاعل لفترة طويلة، وليس في الإمكان رسم اطرها الان، الا ان ملامحها تتشكل تدريجا وهي تشير بوضوح الى ان العالم، وتوازناته الدولية، يتبدل مع احتمالات رسوخ إيران كقوة اقليمية، وتزعزع نفوذ الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة

عندما أعلن الرئيس الاميركي دونالد ترامب في 18 أيار الماضي تعليق هجوم عسكري كان مقررا شنه على إيران في اليوم التالي، لم يكن تلك المرة الاولى التي تتراجع فيها واشنطن عن تنفيذ تهديداتها ضد الإيرانيين.

وعندما أعلن ترامب تعليق عملية "مشروع الحرية" في مضيق هرمز، وهي عملية عسكرية هدفها الفعلي التضييق على إيران وفرض فتح المضيق امام السفن، لم يكن قد مضى 48 ساعة عليها، وتراجع ايضا بعدما جرى اشتباك محدود تقول طهران انها منعت خلاله مدمرات اميركية من الدخول مجددا الى مياه الخليج.

ربما لا يعني ذلك، وغيره من التطورات والاحداث في الاسابيع الماضية، ان إيران "انتصرت" واميركا "هزمت". وليس هذا المقصود هنا، وانما يعني ان هناك حالة اقليمية جديدة استراتيجيا، وهذا في ذاته تحول لا يمكن تجاهله. لكن التحولات، قد لا تكون اقليمية فقط، وانما على مجمل المشهد على الساحة الدولية حيث لم تعد الولايات المتحدة متفردة كقوة عظمى وحيدة في العالم.

عندما قرر ترامب فجأة تأجيل الضربة العسكرية من 18 الى 19 أيار، قال انه تلقى طلبا من امير قطر تميم بن حمد آل ثاني، وولي العهد السعودي محمد بن سلمان آل سعود، ورئيس دولة الامارات العربية المتحدة محمد بن زايد آل نهيان، وانه "يحترمهم"، وذلك "بالامتناع عن شن هجومنا العسكري المخطط له غدا"، وذلك "لأن مفاوضات جادة تجري حاليا، ولأنهم يرون - بصفتهم قادة عظاما وحلفاء - انه سيتم التوصل الى اتفاق سيكون مقبولا للغاية لدى الولايات المتحدة".

منذ متى تغزو الولايات المتحدة وتحارب، وتتلقى "طلبا" للامتناع عن المضي قدما، فتقبل؟ صحيح ان الدول الخليجية وصلت الى خلاصة ان الحرب التي باشرت بها الولايات المتحدة واسرائيل، جرت من دون التشاور معهم، وفرضت تداعياتها المباشرة عليهم. الا انها صارت تدرك ايضا ان تجدد "مقامرة" ترامب الخليجية، قد تدفع ثمنها أكبر مما جرى خلال حرب الايام الـ40، وان الثابت لديهم ان تجديد حرب "التحالف الثنائي" الأميركي - الاسرائيلي، سيقوض من مستقبلهم، وقد يفرض اسرائيل كلاعب اساسي في منطقتهم،

وعلى حسابهم، ناهيك بان كلفة الصراع ستكون على حساب اقتصادهم وخزائنهم ومجتمعاتهم واستقرارهم السياسي. لهذا كله، ولاسباب كثيرة اخرى، نشط الخليجيون لحض ترامب على تغليب المسار التفاوضي، ولو الى حين.

لم يكن غريبا ان تنشط الديبلوماسية الخليجية لثني ترامب عن تجديد الحرب، فاصبحت الدوحة مثلا لاعبا اساسيا في المفاوضات والاتصالات الى جانب باكستان التي تلقت من جهتها مساندة من الصين التي اكثر ما يقلقها اضطراب سلاسل التوريد العالمية ومصادر الطاقة، خصوصا انها تشتري 80 % تقريبا من صادرات إيران النفطية.

ومعلوم ان اتفاقات خاصة تجمع الصينيين مع الإيرانيين، حيث يحصلون على نحو 1.4 مليون برميل يوميا، بأسعار تفضيلية مخفضة. وقد راقب الصينيون باستياء كيف ان ترامب قوض حرية وصول الصين الى آبار النفط الفنزويلية قبل الحرب الإيرانية بأسابيع قليلة بغزو كاراكاس واعتقال نيكولاس مادورو. لهذا، فان لديهم قناعة بأن ترامب فيما لو نجحت حربه على طهران، واسقط نظامها، لكان فرض قبضته على قطاع النفط الإيراني.

وفي الوقت نفسه، فانه الى جانب العلاقات الجيدة التي تجمع الصين بدول مجلس التعاون الخليجي، فانه بدا انها لم تمد يد العون لترامب عندما جاء طارقا بابها في 13 ايار الماضي، فيما للمفارقة اشتكى الرئيس الاميركي وتذمر مرارا من انه لم يجد "الحلفاء" في حلف "الناتو" الى جانبه في المعركة ضد إيران (على الرغم من انهم رفضوا في المبدأ حربه على إيران، واشتكوا بدورهم بانه لم يستشرهم قبل خوضها، ولم يستمع اليهم وهم يطالبون بوقفها ويعتبرونها عبثية).

هذه تحولات كبرى في ما بين الحلفاء على ضفتي الاطلسي، وفي ما يتعلق بالتوازنات والنفوذ الاميركي مع منطقة المحيط الهادئ والشرق الاسيوي. وفي الوقت نفسه، وجد الصينيون لأنفسهم نافذة عبور خاصة منحهم اياها الإيرانيون، حيث كانت الصين اكبر المستفيدين من اذونات العبور التي صارت طهران تمنحها للدخول والخروج من مضيق هرمز.

لكن الصين ايضا كانت سعيدة بفكرة أن ترامب اضطر الى سحب الكثير من اصوله العسكرية في منطقتي المحيط الهندي والهادئ، لحاجته اليها في حربه الإيرانية. وهي على ما يبدو حاولت استغلال ورطة ترامب الإيرانية، لانتزاع تنازلات منه حول تايوان، ويبدو انها نجحت في ذلك، اقله بحسب ما تشير التطورات بعد زيارة ترامب الى بكين وهي الاولى من نوعها لرئيس اميركي منذ العام 2017، حيث اعلن هو شخصيا انه قد يعيد النظر في قراره فرض عقوبات على 5 مصافي نفطية صينية كان قد فرضها قبل زيارته بأيام، فيما تمثلت النقطة الثانية بإعلان ادارته "تجميد" صفقة اسلحة كانت مخصصة لتايوان قيمتها 14 مليار دولار، بررها مسؤولون اميركيون في سياق ضمان توفر الذخائر الكافية لعمليات "الغضب الملحمي" العسكرية الاميركية ضد إيران.

هذه ملامح توازنات مشهد عالمي اخذ بالتبدل. على المقلب الاخر، فان روسيا بدورها راحت تقطف الكثير من ثمار الخيبة الاميركية إيرانيا. فقد استفادت موسكو، العالقة في حربها الاوكرانية وسلسلة العقوبات الغربية المؤذية لاقتصادها، حيث حققت ارباحا كبيرة من ارتفاع اسعار النفط بسبب الحرب، بل انها على ما يبدو عززت صادراتها لدول استهلاكية كبرى مثل الصين والهند، وذلك الى درجة ان ترامب في ظل ضغوط ازمات امدادات الطاقة الذي فرضته إيران، اضطر الى اتخاذ اجراءات لتعليق جزئي ومؤقت ◄

الايرانيون والتفاوض

قال رئيس مجلس الأمن القومي الاسرائيلي السابق يعقوب ناغل ان "التاريخ يثبت ان بمجرد دخولك غرفة المفاوضات مع الإيرانيين، لن تخرج منتصرا". اما صحيفة "ذا اتلانتيك" فقد ذكرت ان "مصالح اسرائيل ستبقى مهددة بينما يبدو ان النظام في طهران سيخرج من الازمة اقوى مما كان عليه قبل الحرب، بعدما احتفظ ليس فقط بقدرته النووية المحتملة، بل اكتسب ايضا سلاحا أكثر فاعلية، القدرة على احتجاز سوق الطاقة العالمي رهينة. وعندما يتحدث الإيرانيون عن "اعادة فتح" المضيق، فانهم يقصدون ابقائه تحت سيطرتهم".

لبعض العقوبات المفروضة على النفط الروسي.
وليس سرا ان انشغال ادارة ترامب بالحرب الاقليمية المشتعلة في الشرق الاوسط، يخفف ضغط وتركيز واشنطن واستنزاف مواردها العسكرية بعيدا من الجبهة الاوكرانية، وهو ما يريح موسكو. وبرغم انه لا وجود لدلائل على ان روسيا زودت إيران بأسلحة خلال الحرب، الا انه من المعتقد بحسب تقارير اعلامية عديدة، ان موسكو زودت طهران بالمعلومات الاستخباراتية وصور الاقمار الصناعية الجوية التي اتاحت للإيرانيين تحديث وتفعيل احداثيات مواقع القواعد الاميركية في المنطقة والاصول العسكرية المتواجدة فيها، واستهدافها بشكل اكثر دقة.
المشهد الدولي وتوازناته يسيران في مسار تغيير، وملامحه صارت واضحة. بعض القراءات الاميركية ذهبت ابعد، محاولة تحديد ما إذا كانت الولايات المتحدة تفقد نفوذها كدولة عظمى وحيدة، او خسرتها بالفعل. يكتب ربورت كاغان، وهو من مهندسي افكار تيار "المحافظين الجدد" المتحكمين بسياسات اميركا في العقود الثلاثة الماضية، انه "من الصعب التفكير في لحظة تعرضت فيها الولايات المتحدة لهزيمة كاملة في نزاع ما، انتكاسة حاسمة الى درجة لا يمكن معها اصلاح الخسارة الاستراتيجية او تجاهلها. فالكوارث التي منيت بها الولايات المتحدة في بيرل هاربور، والفليبين، وعبر المحيط الهادئ الغربي في الشهور الاولى من الحرب العالمية الثانية، جرى عكسها في نهاية المطاف. اما الهزائم في فيتنام وافغانستان، فرغم كلفتها الباهظة، فإنها لم تلحق ضررا دائما بالموقع العام للولايات المتحدة في العالم، لأنها وقعت بعيدا من الساحات الرئيسية للمنافسة العالمية. وحتى الاخفاق الاولي في العراق جرى احتواؤه عبر تغيير في الاستراتيجية ادى في النهاية الى ابقاء العراق مستقرا نسبيا وغير مهدد لجيرانه، مع حفاظ الولايات المتحدة على هيمنتها في المنطقة. اما الهزيمة في المواجهة الحالية مع إيران، فستكون ذات طبيعة مختلفة تماما. فلا يمكن اصلاحها ولا تجاهلها. لن تكون هناك عودة الى الوضع الذي كان قائما قبل الحرب، ولن يتحقق انتصار اميركي نهائي يمحو او يتجاوز الاضرار التي وقعت".
ويتابع كاغان في مقال في مجلة "ذا اتلانتيك" قائلا ان "مضيق هرمز لن يكون مفتوحا كما كان في السابق. ومع سيطرة إيران على المضيق، فإنها تبرز بوصفها اللاعب الرئيسي في المنطقة واحد اللاعبين الاساسيين في العالم. كما تتعزز ادوار الصين وروسيا، باعتبارهما حليفتين لإيران، فيما يتراجع دور الولايات المتحدة بشكل كبير. وبدلا من اظهار القوة الاميركية، كما ادعى مؤيدو الحرب مرارا، كشفت المواجهة ان اميركا غير موثوقة وغير قادرة على انهاء ما بدأته. وهذا سيطلق سلسلة من التفاعلات حول العالم، بينما يعيد الاصدقاء والخصوم على حد سواء حساباتهم في ضوء الاخفاق الاميركي".

مبادرة سعودية

نقلت صحيفة "فايننشال تايمز" عن مصادر ديبلوماسية تأكيدها ان المملكة العربية السعودية طرحت فكرة ابرام "ميثاق عدم اعتداء" يجمع دول الشرق الاوسط وإيران، وذلك ضمن مشاورات مكثفة اجرتها الرياض مع الحلفاء بهدف ادارة التوترات الاقليمية فور انتهاء الحرب بين الولايات المتحدة واسرائيل ضد إيران". واوضحت ان السعودية ترى في "اتفاقية هلسنكي" التي خففت حدة الحرب الباردة في اوروبا خلال سبعينات القرن الماضي "نموذجا قابلا للتطبيق، خاصة مع توقعات المنطقة بظهور إيران ما بعد الحرب في وضع قد يشكل تهديدا لجيرانها". ونقلت عن ديبلوماسي عربي قوله "ان نموذج الميثاق المستوحى من هلسنكي سيحظى بترحيب معظم الدول العربية والاسلامية بل وإيران نفسها، التي طالما سعت لاقناع الغرب بضرورة ترك المنطقة تدير شؤونها ذاتيا".

الخضوع لشروطه في التسوية المحتملة.
لكن الإيرانيين، في المقابل، يراهنون مثل ترامب على عامل الوقت، ويعتبرون أن استمرار تعطل حركة الملاحة في الخليج، ومضيق هرمز، سيضاعف التداعيات المؤذية على الاقتصاد العالمي واسعار الطاقة والاسمدة الصناعية، وسيجبر العالم على الاستماع لمطالب إيران وشروطها.
وتبدو عيون رهانات الإيرانيين منصبة على افكار اساسية تتمحور على فكرة ان خيارات ترامب ليست واسعة مثلما يدعي:
1- جرب الخيار العسكري القاسي والمباشر وبالتحالف مع اسرائيل، ولم يتمكن لا من اسقاط النظام، ولا من تدمير البرنامج النووي بالكامل، ولا تعطيل القدرات الصاروخية، ولا ايقاف إطلاق المسيّرات، ولا انتزاع تنازلات سياسية رئيسية من طهران.
2- كلما استطالت ازمة الحرب المعلقة، كلما طالت ازمة الطاقة عالميا. وفي هذا الاطار، يراهن الإيرانيون ان ترامب لن يمكنه تحمل تداعيات الارتفاع المستمر في اسعار البنزين التي تؤذي المستهلك الاميركي، وهي نقطة من شأنها تدمير اي سياسي اميركي لأي حزب انتمى.
3- يزداد الموضوع الحاحا على ترامب لأن البلاد دخلت فعليا موسم التنافسات الحزبية الانتخابية استعدادا لموقعة تشرين الثاني المقبل حيث تنظم الانتخابات النصفية الاميركية، والتململ يتزايد داخل بعض اوساط حزبه الجمهوري، ناهيك عن استطلاعات الرأي التي باتت تشير الى ان غالبية اميركية واضحة تعارض حرب ترامب الإيرانية.
4- يدرك ترامب، مثلما يدرك الإيرانيون، ان المونديال الكروي يقترب بسرعة (11 حزيران الحالي)، والرئيس الاميركي ربما يكون في حاجة الى هدوء دولي لا يعكر عليه مشهد التربع على عرش مستضيف أكبر مونديال في تاريخ كرة القدم، حيث تشارك فيه للمرة الاولى 48 دولة. هذا المشهد البهي يريد ترامب ان يكون في صدارته في منصة الشرف الرئيسية، مفتتحا السباق العالمي، فيما مليارات البشر يتابعونه. ورغم ان من الصعب التكهن بسلوك ترامب، فان شخصيته ونرجسيته العالية، قد تجعله يفضل في تلك اللحظة التاريخية ان يبدو كزعيم لا غبار عليه وقد لمع صورته كمنظم ناجح لا يعكر صفو ذلك لا حرب ولا ازمات كبرى، خصوصا وأن الاميركيين (كما المكسيكيين والكنديين)، موعودون بإيرادات ضخمة من هذا المونديال الثلاثي، حيث تشير التقديرات الى احتمال ان يحقق الاقتصاد العالمي ناتجا يتعدى 80 مليار دولار، والحصة الاكبر ستكون للولايات المتحدة.
في العودة الى ما كتبه كاغان، فانه يقول "إذا لم تكن الولايات المتحدة مستعدة لخوض حرب برية وبحرية شاملة لإسقاط النظام الإيراني الحالي، ثم احتلال إيران حتى يتمكن نظام جديد من ترسيخ نفسه، واذا لم تكن مستعدة للمخاطرة بخسارة سفن حربية ترافق ناقلات النفط عبر مضيق متنازع عليه، واذا لم تكن مستعدة لتحمل الاضرار المدمرة طويلة الامد للبنية الانتاجية في المنطقة نتيجة الرد الإيراني، فان الانسحاب الآن قد يبدو الخيار الاقل سوءا.
ومن الناحية السياسية، قد يرى ترامب ان فرصته في النجاة من الهزيمة أفضل من خوض حرب أكبر واطول واكثر كلفة قد تنتهي ايضا بالفشل".
كما كتب منظر "المحافظين الجدد" قائلاً: "ان هزيمة الولايات المتحدة ليست فقط ممكنة، بل مرجحة أيضا".